





إشراف : أ.د. نهلة الصعيدي(*)

عُلوُّ الهِمَّة في طلبِ العلم

أ.د. محمود توفيق(١)

من الأدْواءِ التي شاعتْ في كثير من طلاب العلم، في جامعاتنا، ولا سيما طلاب الدراسات العليا فيها، أنه إذا ما لقيتْه كدية علمية في بحثه يهرع إلى أشياخه، يسائلهم مُلِحًّا، مُتنقِّلًا من شيخ إلى شيخ، مُستجديًا جوابًا عن سؤالٍ لم يجاهد في البحث عن جوابه، والتفكير فيه، يستسهلُ ذُلَّ السؤال أو يستعذبه، وما شعر أنَّ ذلك مُسقطٌ قدرَه عند من يسأله، ولا سيما إن كان الجواب قريبًا بل على طرف الثمام، فيوقن الشيخ أن ذلك السائل ساقط الهمة، كلُّ همِّه أنْ يحصّل جوابًا، لا أن يكتسب مهارة تحطيم الكدى، واقتحام الأسوار وفتح المغاليق وإزالة الأذى عن الطريق.

باتت طلبة صناعة الذات الفتية التي لا تنكسر، والعزيمة التي لا تلين، والعزة التي تأنف أن تأخذ، ولا تعطي - باتت هذه الطلبة مرغوبًا عنها، بل مهروبًا منها، ومن يُصرّ من الأشياخ على تحقيقها في طلاب العلم، فغدت جامعاتنا مانحة درجات علمية، لا صانعة عقول فتية، ونفوس أبية، فإذا بحاملي تلك الدرجات يَصدُق فيهم ما رواه الإمام مسلم في كتاب «فضائل الصحابة» من صحيحه بسنده عن سالم عن ابن عمر -رضي الله عنهم- قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس كإبل مئة لا يجد الرجل فيها راحلةً»، على الرغم من أنّ الرسالة الرئيسة لكل الجامعات، ولا سيما جامعة الأزهر «فسطاط الحي» هي صناعة العلماء الذين يقودون العباد لصناعة حياة عزيزة كريمة للأمة المسلمة، وللإنسانية جمعاء.

تهافُت الهمم في طلب العلم وخدمته هو الداء الوبيل الذي تفشَّى في أكثر جامعاتنا ومعاهدنا، وكأننا تصالحنا معه، واسترحنا إلى مصاحبته، فخدعنا أنفسنا بأن هذا سمة العصر، وأنّ الناس أشبه بزمانهم، وكأن زمانهم هو صانعهم، لا هم صانعوه، كلا، إنّها كلمة عوراء، ما لهذا خلقنا.

(*) مستشار شيخ الأزهر لشئون الوافدين، ورئيس مركز تعليم الطلاب الوافدين.
(١) عضو هيئة كبار العلماء.



علوّ الهمة في طلب العلم شِرعة النبلاء:

لما كانت نعمة الهداية إلى الإسلام أجلّ نعم الله –سبحانه وبحمده- علينا إذ جعلنا – تفضُّلًا منه – من أمة سيدنا رسول الله ﷺ وجعلنا من طلاب العلم بكتابه وسنة رسوله ﷺ، كان ذلك تكريمًا مستوجبًا عظيمَ الشكر على هذه النعمة، بأن نري اللهَ –عزّ وعلا – أثرَ هذه النعمة علينا، فذلك من محبوبه –جل جلاله- كما هدى إلى ذلك بيان النبوة، فلا نرضى أن يكون غيرنا متقدمًا علينا في طلب الحق ونصرته بالحق أيًّا كان صاحبه، وفي طلب الخير وصناعته ونشره في الناس كل الناس، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)

حري أن نكون أحرص ما نكون على التخلق بخلق «علو الهمة» ولا سيما في طلب العلم، وخدمته ونشره بلسان الحال ولسان المقال .

وسيدنا رسول الله ﷺ قد حضنا على أن نطلب عَلِيَّ المنازل وكريمها، روى البخاري في كتاب «الجهاد» وكتاب «التوحيد» من صحيحه بسنده عن أبي هريرة –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنة جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي وُلد فيها»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»(٢).

(٢) حق هذا البيان النبوي الشريف في معناه وفي صياغته وفي مغزاه أن نفهم قوله ﷺ: «كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها» في سياقه، السِّياق لا يُسوّي بين من جاهد ومن لا يجاهد في الدرجة، هو يبين أن مفتاح الجنة الإيمان باستحقاقاته التي في وسع العبد، فمن أدى الاستحقاقات التي في وسعه دخل الجنة، فإن لم يكن في وسعه الجهاد بالسيف ففي وسعه الجهاد بغيره، ألا ترى أنه ﷺ قال: «أو جلس في أرضه التي ولد فيها»، ولم يقل: أو لم يجاهد، فهذا يلفت إلى الجهاد الذي يقتضي الخروج من البلد التي ولد فيها، وثم جهاد لا يقتضي ذلك، وهذا لا يسقط عمن كان عليه قادرًا، كمن كان غير مُطيقٍ إيتاءَ الزكاة فلا حرج عليه حتى يُطيق، كذلك من كان غير مطيق الجهاد المقتضي الخروج من بلده التي وُلد فيها سقط عنه حتى يُطيق، فليس في الحديث دعوة إلى أن يخلد المرء بأرضه ويدع ما هو قادر عليه من الجهاد، البيان يسوي في دخول الجنة من حقّق الإيمان باستحقاقاته التي يُطيقها سواء كان من الاستحقاقات التي يطيقها الخروج للجهاد من بلده أو لا، ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٩١ –٩٣) ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ١٦، ١٧).



هو يحثّنا أن يكون مطمحنا الفردوس الأعلى، حيث جوار الأنبياء وليس مجرد دخول الجنّة، فذلك -على جلاله- طَلِبة الدهماء، أما النبلاء فلا يرضون إلا بالفردوس الأعلى لصحبة النبيِّين، والصِّدِّيقين، والشهداء، والصَّالحين، وتلك الصُّحبة هي من أجلّ النِّعَم، بعد نعمة رؤية ربنا جل جلاله فيها، وطلب العلم وخدمته، ولا سيما العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هو فردوس الله الأعلى في الدنيا عند أولي الألباب، ففيها صحبة ورثة الأنبياء: العلماء الربانيون في أسفارهم أو مجالسهم، ولا يرغب عن ذلك إلا من سَفِهَ نفسَه.

ولا يريد سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس» أن نكتفيَ بالسؤال بألسنتنا، وإنما القصد إلى أن نُهيِّئَ أنفسنا لأن نكون أهلًا لأن يستجاب لنا إذا ما سألنا الفردوس الأعلى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة: ١٨٦) فالقصد هنا إلى الحث على تحقيق السبب، وليس السؤال الأجرد من التهيُّؤ للاستجابة للسؤال، والتّعرُّض لنفحات الله تعالى، وهو من باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(آل عمران: ١٠٢) أي اتخذوا الأسباب التي تُحقِّقُ لكم ألا تموتوا إلا وأنتم مسلمون، فمن اتخذ الأسباب صادقًا مُتقِنًا حقّق له الله -سبحانه وبحمده- مسبباتها ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾(النبأ: ٣٦).

ومن علوّ الهمّة ألا تقيم نفسك مقام من ينتظر من شيخه أن ينثر بين يديك مكنوز العلم، وما عليك إلا أن تحمل، مَنْ فعل ذلك معك فإنما يحرمك لذّة التفكير، والبحث عن الخبيء.

شيخك الحق وصانعك رجلًا وقد شببت عن طوق «التلقين» إنما يكتفي بأنْ يُنبِّهك على مكان الخبيء؛ لتطلب أنت بنفسك، وعلى موضع الدفين؛ لتبحث عنه؛ فتخرج، ويفتح لك الطريق إلى المطلوب؛ لتسلكه، ويضع لك القاعدة؛ لتبني عليها.

صانع الرجال يعلمهم كيف ينحتون من الجبال قصورًا، ويفجرون من الصخور أنهارًا.

علوّ همّة البحتري في طلب العلم:

ومما هو جدير بتأمله والاهتداء بما فيه من الحُسْنَيات ما كان من شأن الشاعر البحتري: الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال أبي عبادة الطائي (٢٠٦- ٢٨٣هـ) مع أستاذه الشاعر: علي بن الجهم بن بدر، أبي الحسن السامي الخراساني (ت ٢٤٩هـ).



يقول أبو بكر: محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي (ت ٣٣٥هـ)، راويًا عن عبد الله بن الحسين: «قال لي البحتري: دعاني عليُّ بن الجهم، فمضيت إليه، فأفضنا في أشعار المحدثين

إلى أن ذكرنا أشجع السلمي[٣] فقال لي: « إنه يخلي» وأعادها مرات ولم أفهمها، وأَنِفْتُ أن أسأله عن معناها، فلما انصرفت فكرت في الكلمة، ونظرتُ في شعر «أشجع السلمي»، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولةً ليس فيها بيت رائع، فإذا هو يريد هذا بعينه، أنه يعمل الأبيات، فلا يصيب فيها ببيت نادر، كما أن الرامي إذا رمى برشقة، فلم يصب فيه بشيء قيل: أخلى»[٤].

تَبصَّرْ حالَ البحتري مع أستاذه عليّ بن الجهم، لم يفهم مقالته على الرغم من تكرار العليِّ لها، لفتًا لها، ولم يشأ البحتري أن يطلب من شيخه تفسيرًا استعجالًا للمنفعة، إراحةً للنفس، وكان لو سأل لأجاب العلي بن الجهم، ولكنه البحتري، لم يشأ إلا أن يطعم من عمل عقله، ألا تسمع قول البحتري: « وأنفت أن أسأله عن معناها»؟ ألا تستشعر ما في قوله: «أنفت»؟ هل لك أن تجعلها من عمد شأنك مع شيخك؟ تأنف أن تسأل من قبل أن تستفرغ جهدك بحثًا وتنقيبًا وتفكيرًا، وتزلّفًا إلى الله –تعالى– أن يمدك بعونه، هل لك أن تفعل؟

وتبصَّرْ ما كان منه – أيضًا– يقول: «فلما انصرفت، فكرت فيها» لم يكتف بهذا ليهرع إلى أستاذه يعتذر إليه أنه لم يوفق في فقه ما قاله وكرره، كلا، كما أنف أن يسأله عن مقصده من مقالته، أحسن الظن بأستاذه، وعلم أنه لا يقولها، ويكررها: «إنه كان يخلي» إلا من بعد تفرُّس حكيم محيط بشعر أشجع السلمي، ليقينه أن أستاذه ما كان ليقيم نفسه مقامًا لا يكون فيه صادقًا في الحكم على شاعر، فإن لديهم مهابةً من أن يَظلموا أو يُظلموا في الحكومة البيانية، لما يعلمون من عظيم قدر هذه النعمة التي امتنّ الله –تعالى– بها على الإنسان في طليعة سورة «الرحمن».

لم يكتف البحتري بأن يفكر في مقالة أستاذه في أشجع السلمي، ولكنه اقتدى بأستاذه الذي ما قال قالته فيه إلا على بصيرة، فلم لا يسعى هو لأن يبصر هذه القالة في واقع شعر أشجع السلمي، يقول: «ونظرت في شعر أشجع، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولةً ليس فيها بيت رائع»،

(٣) هو أبو الوليد: أشجع بن عمرو السلمي من بني سليم من قيس عيلان (ت ١٩٥هـ) ولد باليمامة ونشأ في البصرة، وانتقل إلى الرقة واستقر ببغداد، مدح الرشيد والبرامكة، وانقطع إلى جعفر خاصة وأصفاه مدحه، ووصله الرشيد وأعجبه مدحه وتقدم عنده وأثرت حالته في أيامه، انظر ترجمته في: «طبقات الشعراء» لعبد الله بن محمد بن المعتز العباسي(ت ٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف – القاهرة، طـ٣، ص ٢٥٠، و«فوات الوفيات»، لمحمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، طـ١، سنة ١٩٧٣م، ١/ ١٩٦، و «الأعلام»، للزركلي، ١/ ٣٣١.

(٤) «أخبار البحتري»، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي(ت ٣٣٥هـ) تحقيق وتعليق: صالح الأشتر– مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، عام ١٣٧٨هـ، ص ١٧٢، و«أخبار أبي تمام»، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي(ت: ٣٣٥هـ)، تحقيق وتعليق: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، تقديم: أحمد أمين، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، (د.ت)، صـ٦٣، و«الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء»، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٣٨٤هـ)، عني به: مُحب الدين الخطيب، المكتبة السلفية – القاهرة طـ٢، عام ١٣٨٥هـ، صـ٢٦٦، و«العمدة في محاسن الشعر وآدابه»، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، طـ٥، ١٤٠١هـ، ١/ ٢٠٥.



تَبَصَّرْ قوله: «نظرت في شعره»، أتُراك تُبصر ما تهديك إليه «في»؟ ثم أتراك تشهده وهو يتفرّس شعره؟ مُكبًّا عليه لا يلوي على غيره؟ ألم يقل: «في شعر» فدلَّك على استفراغ النظر فيه، جعل شعره ظرفًا مُحيطًا مُحدقًا بنظره مأسورًا فيه فليس ثَمَّ طَلِبَةٌ تغريه أنْ يُجاوزَه حتى يبلغ الحقيقة في مقالة أستاذه، لم يكتفِ بواحدة يجدها في شعره، لعلمه أن عظم الشعراء قد يكون منهم ذلك، فلا يستقيم أن يوصمَ بها لواحدة أو ثنتين.

أرأيتَ إلى الحيْطة والنَّصفة؟ أو لك بحّاثة عن الحق والخير أن تتخلق بها في طلب العلم؟ أرأيت إلى علوّ الهمة في طلب الحسنى؟ أتتخذها عبادةً تتزلف بها إلى ربك -سبحانه وبحمده-؟

استقرأ البحتري شعر أشجع السلمي فانتهى به نفاذ بصيرته وتغوّرها وإحاطتها في شعر أشجع إلى أنه «ربما مرت له الأبيات مغسولةً ليس فيها بيت رائع»، كذلك انتهى به البحث والتفتيش، فطعم من عمل عقله وهِمّته، وأنِفَ أن يكون على غير مائدته، فَلْيَسَعْكَ بيتُك، وَلْيَبْجَدْكَ عقلُك، ما كنت رغوبًا في أن تكون من النبلاء، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز.

حقٌّ على كل جامعة أن تُطهِّر حرمَها من ركس ساقطي الهِمّة في طلب العلم وخدمته، فمنهم تؤتى الأمة ويستذل أهلها وتغتصب أرضها وعرضها، وحقٌّ عليها أن تعمل جاهدةً على أن تجعل «علوّ الهمة» في طلب كل شريفة، ولا سيما طلب العلم هو سمت منسوبيها جميعًا، كلهم في ميدان التنافس في الحسنى مجليًّا لا مصليًّا.

سأل طويلب شيخه: حدّثنا شيخنا عما يكون لنا في الجنة من نعيم مأكل ومشرب ومسكن وملبس، فسكت الشيخ، وكأنه قد باغتته سهام خيبة الأمل في طويلبه، ثم قالها: «فيها رسول الله ﷺ» وسكت، فكان ذلك أوجز وأنجز باعث على علوّ الهمة، فهل من ساعٍ إلى لُقْيَا سيدنا رسول الله ﷺ في الفردوس الأعلى؟

